15 و 21

مجلة للفكر الإسلامي المستقبلي

في الفكر الاجتماعي لحشاد

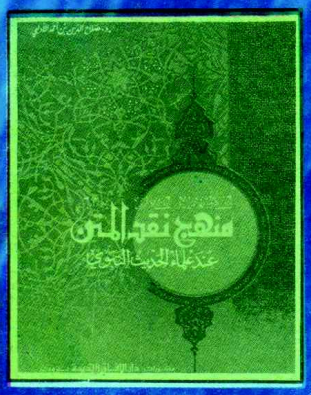

منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي الشريف

الشعبات الجغرا سياسية للعالم الإسلامي

العنف واللامبالاة

حوار مع:

عبدالقادر الزغل • معين زيادة • رضا الزواري

العدد 13 السنة الثالثة - تونس 1406 هـ 1986 م - الثمن 800 م

عن اللامبالاة في تونس من « القينيا » الى الارهاب

محمد القومانى

إذا كان من معاني الوطنية، الانشغال بقضايا الوطن، والمسؤولية تجاه ما يحدث فيه، وإذا كانت الوطنية شرط نجاح الدولة العصرية، فإن اللامبالاة تصبح خيانة وتهديداللدولة. وإذا كانت الرسالة (الأمانة والخلافة) أهم ما في الدين، فاللامبالاة استهتار بالدين ونفي له وكفر بالوجود. وإذا كانت المسؤولية شرط التغيير، والثورة قمة الجهد البشري، فاللامبالاة هي أهم معوقاته وهي العاطفة المضادة للثورة. وإذا كان التنوير رفع لكل الوصايا عن العقل، وتحرير الانسان من حالة العجز والقصور عن التفكير دون الاستنادة على قيادة الآخرين برزت اللامبالاة كاكثر مظاهر الفكر تخلفا، بل قتل للعقل أصلا.

وأخيرا إذا كان جوهر الانسان رسالة، لا يتحقق وجوده إلا بتحققها، ظهرت اللامبالاة على أنها نفي بجوهر الانسان وإلغاء لوجوده.

من هذه المقدمات يمكن أن ننتهي إلى أن المسؤولية (≠ اللامبالاة) مطلب الجميع وشرط نجاح أي مشروع. وأن اللامبالاة على العكس من ذلك، الخطر الذي يهدد الكل، الدولة والمجتمع، السلطة والمعارضة، المؤمنين والملحدين، السلفيين والمستنيرين،... فهلّ حُكم علينا نحن العرب بالفشل المسبق، والاحباط المستمر، إذا إتفقنا على أن اللامبالاة أهم سمة لواقعنا؟!.

في تونس، كثيرا ما ينقد المسؤولون ما يسمّونه بحالة التسيّب، وفي صحافة المعارضة حذرت بعض الأقلام ممّا سمّته بخطر الاستقالة الجماعية. وفي الجامعة يتفق الطلاب بمختلف شرائهم، على أن حالة اللامبالاة المتفشية في صفوف الطلبة، من أهم السلبيات وأكبر المخاطر التي تهدد الحركة الطلابية وتكاد تعصف بها. وفي المجتمع بصفة عامة، تتصاعد الزفرات من كل جهة، ويكتسح القلق والتوتر واليأس كل الصفوف، ويضهر النشاط، ويصرخ الناس : « في الدار قينيا »، « في الخدمة قينيا »... « في المقهى قينيا » « في الشارع قينيا »... أينما ذهبت « قينيا »... أنا لم يعد يهمّني شيء...

التسيب، الاستهلاك، اللامبالاة، «القينيا»، كلها عناوين لظاهرة واحدة تحتاج لرصد وتحليل، خلفياتها وأبعادها وسنحاول القيام بذلك مستفيدين من ملاحظات الدكتور حسن حنفي في هذا المجال، واقتفاء أثره فيما دعا له في مقالاته من تحليل الظواهر الاجتماعية كظواهر شعورية حيّة، باتجاه إقامة ما سمّاة « بالفينومونولوجيا الاجتماعية».

★ في معنى اللامبالاة :

اللامبالاة بصفة عامة، ظاهرة اجتماعية، فكرية، حضارية... وقد تكون الحالة النفسية جماع لهذه الظواهر وأكثر. واللامبالاة يمكن تصنيفها الى أنواع :

1 ـ لامبالاة لا إرادية : ويدخل ضمنها حالة الحياد عند المثقفين، وحالة التسليم عند « العامة »، فاللامبالاة اللارادية يمكن أن تتضمن ما أسماه الفلاسفة بـ « حرية استواء الطرفين » او « الطرفين » او « عدم الاكتراث ». وهي **عجز الارادة عن الاختيار**. وإن علل البعض هذه الحالة بأن الاشياء في ذاتها ليس فيها ما يدفع الارادة لهذا الاختيار او ذاك. يقول ديكارت « إنّ عدم الاكتراث الذي أشعر به عندما لا أكون مدفوعا الى اختيار هذا الجانب أو ذاك، تحت تأثير أية قوة مُسيّة هو أدنى درجة من درجات الحرية » (1) : إن علل البعض عدم الاكتراث بهذا السبب، فإن معارضي هذه النظرية كانوا أكثر إقتناعا عندما أعادوا **العجز عن الاختيار الى الجهل بما هو أفضل**. فعدم الاكتراث عند ليبيتز « وليد الجهل » (2) وعندهايضا « الجهالة والخطأ هما منشأ الشرّ، والخير وحده هو الذي يمكن أن نصفه حرّا» (3)، فحالة الحياد الفكري أو السياسي، أو العاطفي، إن وقد فيها البعض شيئا من الارتياح، واعتبروا ذلك لونا من الحرية، فإن **هذا الحياد ليس إلا حرية زائفة. أو كما يقول الفلاسفة « حرية بلا بواعث » وهي ادنى درجة من درجات الحرية**. يقول ليبنشر « إن النفس لا توصف بأنها حرّة، الا بقدر ما تحقق من أفعال إرادية قوامها الأفكار المتمايزة، ورائدها الاستماع لصوت العقل » (4). فالحياد في الأخير هو عجز الارادة عن الاختيار وفقدانها للقدرة عن

◄◄

الحب او الكره. فهي ظاهرة مرضية. لذلك قال عنها علماء النفس « حالة نفسية لمن يظل محايدا عاطفيا ونفسيا أمام حلول مختلفة متعارضة دون تفضيل أحدهما » (5). **اللامبالاة بهذا المعنى قد تتحول من رفض للانتماء والاختيار، الى نوع من الجبن والخيانة، او الانانية والانعزالية** والا ما الذي يبرر الحياد في مثل واقعنا؟!. أمّا عن اللامبالاة عند « العامة » أو اللامبالاة العادية، فهي الحالة التي تصبغ واقعنا عادة بطابع من الخنوع والتسليم والرضا. فتكون الاغلبية « محافظة » في وضع أشد ما يكون حاجة الى « الثورة ». **هذه المحافظة لا تعكس موقعا اجتماعيا له مصلحة في استمرار الاوضاع كما هو مفروض أن يكون، بل محافظة تعكس جهلا بالواقع والياته**، وأميّة في الوعي وغباوة في التفكير. هذه اللامبالاة أقرب الى ما قصده المتنبي بقوله : « وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم » أما ما عناه المثل العاميّ عندنا « العزوزة هازها الوادي وهي تقول العام صابة ». **ولعل أخطر ما في هذه اللامبالاة هو ما يصاحبها من شعور بالارتياح والاطمئنان وحمد الله على كل حال !..** لأن هذا الشعور وهذه النفسية سرعان **ما تتحول الى « تمطية » تقبل بما هو واقع، وينعدم معها « التساؤل » و « الشك ». وتزول معها كل رغبة في التغيير.** وتكون عندها اللامبالاة العدو الاول للثوريين.

2 ـ **اللامبالاة الادارية** : وهي أقرب الى السلبية المتولدة عن رفض لما يدور في الواقع، واحتجاج هادىء على السلوك الزائف والاعمال « **وقد تكون اللامبالاة في هذه الحالة موقفا شريفا وسط الزحام**». (6) **وهي اللامبالاة التي عناها القران عندما أمر بالكف عن اللغو، والاعراض عن الجاهلين. وهذه اللامبالاة تكون عادة موقفا متأتيا وحصيلة سلسلة من التجارب والاحباطات. وقد تستمر بصاحبها وتتطور حتى تتحوّل الى سوداوية وعدم ثقة وفقدان للأمل في أيّ مشروع.** وعندها ينعدم أي باعث عن السلوك، **ويصبح السلوك هو عدم السلوك.** وفي هذه النقطة يلتقي النوع الثاني مع الاول. ويندعم كل فعل تغييري، ويفقد العمل قيمته ولا يصبح للحياة معنى. وقد يكون الحل الأقرب والأسهل للهروب من هذه الوضعية إما بإعلاء نفسية اللامبالاة، والتقوقع على الذات والانقطاع لعمل معيّن عادة ما يكون الكتابة والتأليف أو التعبّد والزهد. وفي هذه الحالة تصبح اللامبالاة **لامبالاة بالحياد وقد يكون الحل الثاني وهو الأعمّ بتحويل اللامبالاة من حالة نفسية الى حالة فيزيولوجية عن طريق تناول المخدّرات، وتكون اللامبالاة هنا لامبالاة بالنفس والبدن.**

★★ في تعليل الظاهرة :

اللامبالاة اللإرادية واللامبالاة الارادية رغم اختلافها النوعي، والاختلاف أوساطهما، فإنهما يلتهيان في نتائجهما عندما يتحوّلان الى حالة مرضية تطبع واقعنا بالسلبية وتعيقه عن التقدم، والنوعان أيضا يمكن إرجاعهما الى أسباب أساسية مشتركة.

فإذا استثنينا اللامبالاة اللإدارية كإشكال فلسفي يعود الى قضية الحرية الانسانية، وهو ما يطول النقاش فيه، واتفقنا على قول فولتير « انه مهما يكن المذهب الذي تعتقده، فإننا نعمل دائما كما لو كنّا احرارا » (7)، أي أن الحرية مبدأ ضروري الفعل ومصادرة هامة من مصادرات الحياة العملية. والحرية رائدها الاستماع لصوت العقل وهي « تلقائية الكائن العاقل » (8) كما عند ليبيتز. ومن هذا يكون الاختيار والانتماء هو الأصل. وان الحياد او عدم الاكتراث جهل او في ادنى الحالات استثناء. إذا تجاوزنا هذا الاشكال وحاولنا تحليل ظاهرة اللامبالاة في مجتمعنا بمختلف اصنافها واوساطها، كظاهرة حية في شعور الأفراد، وجدنا مصلطح « القينيا » في الشارع التونسي أقرب للتعبير عما نقصده. فاللامبالاة وثيقة العلة بظواهر « القلق »، و « التردد » و « القرف »... فقد تكون اللامبالاة نتيجة فاقة مادية واحتياج ملح (قينيا)، وقد تكون

نتيجة لأزمة اجتماعية يعيشها الشاب متولدة عمّا يلقاه من مصاعب في سوق الشغل، او ضغوطات الادارة، او ارتباك مقاييس التوظيف والتفضيل، في ذهنه. او نتاج عقدة الفشل « التي ترافق الشباب في اغلب المناظرات والمسابقات التي يخوضونها (9). وقد تكون **اللامبالاة ردّ فعل شعبي عمّا يسود العلاقات الاجتماعية من تسيّب وغياب للقانون وسيادة الأهواء والأمزجة والرشوة في تسيير الامور وقضاء المصالح، وما يصاحب ذلك من انقلاب للقيم يصبح معها المجرم بريئا والعكس، ويصبح الخائن وطنيا، والمتملق شريفا، والمرائي تقيا الخ...** وقد تكون اللامبالاة أيضا ترجمة للتزلف والنفاق والخوف والتعايش، والمصالحة الجوفاء، التي تنشأ في وضع قمعي يشعر الافراد فيه أنهم مهدّدين في معاشهم وحياتهم. **واللامبالاة أيضا قد تصبح تأقلما مع وضع تقليدي يرزح تحت الروتينية، وتنعدم فيه الجدّة. ويبعث عن الملل. يفقد الناس معه الاحساس بالزمان وتتبلد فيه الاذهان، وتركد الحياة العقلية، ويغيب الحماس والتنافس النزيه. وقد تكون اللامبالاة تعبيرا عن غربة او اغتراب. تنتج عن انفصام في الوعي.** عندما يفقد اللامبالي ذاكرته، وينقطع عن ماضيه ويُلحق بغيره. او عندما يغترب عن مرحلته التاريخية ولحظته الحضارية وينفصم عن حاضره ومستقبله. وفي الحالتين يفقد الفرد توازنه، ويبعد عن ساحة الفعل، فتكون اللامبالاة غراء (طوبي للغرباء).

تتعدّد مظاهر اللامبالاة، وتختلف الاسباب، ويفيق المجال عن حصرها، لكن الذي يهمّنا هنا هو الوقوف على تعليل الظاهرة في احلى مظاهرها بمجتمعنا.

○ **اللامبالاة لدى الاغلبية** : وهي الى جانب ما ذكرناه من دوافع، ترجع الى سببين رئيسيين : أصلا : الامية والجهل - أمية الوعي خاصة - وعدم انخراط الجماهير الواسعة في القضايا والاهتمامات التي يطرحها الطلائع والمثقفون. وهذا راجع إما الى الزّيف الثقافي، والمصطلحية، والجري وراء بهرج الخطاب، والتعلي - عن الجماهير - الذي يمارسه بعض المثقفين فيزيد في عزلتهم وعدم مبالاة الجمايهر بما يقولون او يكبتون. وقد يرجع هذا الانفصام بين الجماهير والمثقفين ايضا الى تدني وعي الجماهير وتردّي الوضع التربوي والتعليمي في واقعنا ممّا ينذر بأخطار جسيمة تهدد مجتمعنا اذا لم يقع تلافي الامر (10).

ثانيا : انعدام التنوير في ساحتنا، بما هو صوت للعقل والشخصية، وخروج من حالة القصور والعيش في احضان الآخرين، وذلك بسبب الوصايا المختلفة - الدينية والسياسية - والمرجعية - التي ما يزال يرزح تحتها العقل العربي، وتعيق الفرد عن الانطلاق والمشاركة بكل تلقائية ومسؤولية في الحياة والأنشطة بعيدا عن كل « أستذة» أو شخصية أو أدلجة.

○ **اللامبالاة لدى النخب، وخاصة من المثقفين والمتعلمين** : والتي ترجع أساسا إلى الاحباطات المستمرة التي تمنى بها مشاريعنا، مما يفرض سوداوية وتشاؤم على الواقع، مما الفرد أن يقتنع أنه فاقد لحريته، وان مصيره ليس بيده، بل هو دُمية تحرّكها أيادي خفية، وأنه عاجز عن فعل اي شيء شعاره المفضل « بدون محاولة » أو « لقد جُرّب ذلك ولم ينجح ». وفي هذه الحالة يضمر النشاط، ويضمر معه الاحساس بالوطنية والانتماء، وتسود الذلة والمسكنة.

★★ بحثا عن الحل :

لمّا كانت اللامبالاة ظاهرة اجتماعية، وهي حالة مرضيّة، فإن المجتمع قد يفرز طرقا لمقاومتها. وقد تكون الحلول التي يتخذها البعض للقضاء على اللامبالاة واعية او غير واعية، وقد يكون منها الصائب، ومنها ما يزيد الطين بلة. (يعمل الجاهل بنفسه ما يعمل العدو بعدوّه). فقد تكون فلسفة « طزّ » و « خليها على الله »، طريقة الاغلبية في مقاومة نفسية اللامبالاة. وقد لا يكفي ذكر كعزاء، فيلجأ الناس الى الفكاهة. فتسود « النكتة » و « السخرية ». وفي الحالة المعاكسة ينتشر السب والشتم والتذمّر العزوف عن كل شيء. ويصبح المجتمع أقرب الى أن يصدق عليه ما لام به الامام الاشعري تلاميذه عندما قال « كلكم تبكون فمن سَرق مُصحفي ». لكن « لما كان جوهر الانسان هو النشاط. كان لا بدّ أن يتسرب النشاط من الابواب الخلفية مادامت اللامبالاة قد سدّت تجاهه الابواب الامية » (11) وعندها تسود الانشطة الزائفة. كما يجري وراء الاستهلاك، او التطلعات الطبقية، او الاهتمام بالسيارة والزوجة والابناء، وفي أحسن الحالات « الجري وراء الخبزة »، وهو نشاط حقيقي كمطلب حياتي، لكنه زائف لأنه فردي ووقتي ويحول دون الثورة الاجتماعية كحل جذري لمشاكل الاغلبية. وقد يكون الحل أكثر تزوع للجماعية فيفرّ الناس من اللامبالاة (القينيا) بالانتساب الى الأندية الرياضية، او الجمعيات الثقافية والدينية... وهي أطر قد تؤدي بعض الخدمات لكن إذا اقتصر عليها النشاط، تصبح حلا تسكينيا وقضاء على جذور الثورة والتغيير.

وعند « النخب » قد يكون الحل، باصطناع عالم خيالي، والفرار من المشاكل الفعلية، والنزوع اكثر الى التعالي عن الجماهير والاقتصار عن المطالعة والنشر ومخاطبة الجماهير بما لا تفهم. **ومع هذه « النخب » يسود الفكر التبريري**، وتصبح «نعم» تعني «لا» ويطالب كل واحد بتحديد « مفهومه لذلك » و « مفهومه لذلك...» حتى « مفهوم المفهوم » فيصبح الواقع كلمات، وتسود «المصطلحية »، وتتحول أعمال المثقفين كلاما على كلام. وكما قال القرآن « إن هي الا أسماء سيتموها... » وفي أحسن الحالات قد يعترف بعض المثقفين بعزلتهم ولا فعاليتهم، فينادون بالتقييم والمراجعة ولكن دائما يضخمون التحديات من أجل تأجيل الفعل. تتعدّد

مظاهر التفاعل مع اللامبالاة (القينيا) في المجتمع، ولكن دائما في إطار الحلول الجزئية والزائفة. وقد تكون أفضل الحلول وأكثرها تقدّما وحفظا لماء الوجه نزوع بعض الأفراد الى « التآمر » وتكوين « المجموعات السرية » وعندها تصبح الثورة عملا سريّا، ويغترب الثوريون عن واقعهم، وتكبرّ احلامهم. وأمام اكتشاف التنظيمات وتلاحق الضربات، قد ينادي البعض بممارسة « العنف المسلح » او « حب العصابات »، إرضاء للنفس او انتقاما لها، وتبرءة للذمة، وإلقاء لآخر الخراطيش، فيكون « اخر الطب الكي »، وتتحول اللامبالاة الى عنف ويدخل المجتمع في دوّامة الارهاب.

★★ أسئلة وتحدّيات :

القرف، اللامبالاة، الشيب، القلق، « القينيا » كما يسميها الشارع التونسي إذا إستفحلت في مجتمع دمّرته. وأفقدته كل قدرة على المقاومة، أو التواصل والتقدم. وقد تتوّج عملية التدمير بانتشار الارهاب، عندما يكون « الاجرام » و « عمليات العصابات » الطريقة الوحيدة المثلى لافتكاك الحقوق، وتلبية الحاجيات، وعندما يكون « العنف المسلح » اخر ملجإ للثوريين، والطريقة الأنجع لتحقيق نتائج في واقع استحال معه كل إصلاح. و « الارهاب » حالة غير مستبعدة في مجتمعنا إذا استمرّت الأمور على ما هي عليه. وإن لم يكن هذا أو « ذاك استفحلت اللامبالاة، وباتت قدرنا، ومن ثم حكم علينا بأن نقبل بـ « الزمن الرديء » ونقنع بالفشل المسبّق كما إتفقنا في طالع المقال.

وحتى لا أكون متشائما، واستنادا الى ما بقي يحدوني من أمل وتفاؤل، إن التفاؤل وحده شرط الحياة « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ». استنادا لذلك يمكن أن يحتم هذا المقال تسجيل النقاط التالية :

- إذا كانت اللامبالاة عدوّ الجميع، وتأسيس خطاب مسؤول مطلب مشترك، فإن التحدّي يقع في المقام الأول على المثقفين والمفكرين الذين آن لهم أن يفهموا أن الكتابة والتأليف وحدهما لا يكفيان، بل هما عمل منافض لما يصفونه من حالة أميّة تغطي أكثر من نصف الجماهير العربيّة.* فالكتابة لن تكون حلا إلا في مجتمع قارىء، وما دمنا نفتقد هذا الشرط الآن، فإن إعادة ترتيب الأولويات ومراجعة طرق العمل أمر متأكد.

- إذا كانت اللامبالاة تردّد، وحياد، كان القضاء عليها بتأكيد الانتماء الواعي، وتحديد المواقف، **وممارسة النشاط السياسي، لا كعمل تآمري أو انقلابي، بل السياسة كإهتمام مسؤول بقضايا الوطن وبحث جدّي عن حلول جذرية لمشاكل التخلف.**

- إذا كانت اللامبالاة حلة من المحافظة والتسليم، وإلغاء للعقل وتبلد للذهن، ظهر التنوير، بما هو رفع للوصايا، وتحقيق للذاتية، واستماع لصوت العقل، شرط لكل تنمية في المجتمع، ومقدمة لنجاح كل مشروع تقدّمي.

- إذا كانت المسؤولية نقيض اللامبالاة، ونفيا لها، فإن تحقيق هذا المطلب في واقعنا بات مرهونا بصياغة خطاب مسؤول، يفسّر العالم، ويعطي معنى للوجود، ويخلق بواعث على السلوك. وها أحتسب الأمر هيّنا، والحال أن الخطاب الوطني في ساحتنا قد ضَمُرَ، وبقي الخطاب الديني التكليفي وحده الذي اكتسح بعض الصفوف، لكن التكليف الديني، إنتهى الى مخاطره المعروفة والتي ننقدها. ويكفي أن التكليف نقيض التنوير.

الهوامش والمراجع :

(1) زكرياء إبراهيم : مشكلة الحرية ص 117. مكتبة مصر. ط 3.
(2) نفس المرجع : ص 124.
(3) نفس المرجع : ص 127.
(4) نفس المرجع : ص 126.
(5) انظر د. حسن حنفي : قضايا معاصرة ج I. ص 191. دار التنوير ط 1.
(6) نفس المرجع ص 195.
(7) انظر د. زكرياء إبراهيم - مصدر مذكور سابقا.
(8) نفس المرجع : ص 125.
(9) راجع لمزيد التفصيل مقال د. حبيب الآجري - سيكولوجية المهزوم. (15 - 21) عدد 11.
(10) المطلع على أوضاع التلاميذ والأساتذة بالمعاهد الثانوية، والحالة التعليمية بالجامعة يمكنه إدراك مثل هذا الخطر الذي يحتاج منا إلى اهتمام قبل أيّ شيء اخر.
(11) د. حسن حنفي ص 196 - مرجع مذكور سابقا.
(★) أنظر نسبة الأميّة بتونس (أكثر من 48 %) في مقال « متى سنحتفل بوفاة اخر أميّ » أبو طارق - جريدة الرأي - عدد 350 السنة 8.